سؤال الفهم بين الوحي والواقع

أ. دوفاني سعاد
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية

الملخّص:

يعيش المسلمون اليوم ظروفا ويواجهون أوضاعا جديدة لم تعرض لم من قبل، مغايرة للظروف والأوضاع التي وجدت زمن الوحي والذي عالجها بنصوصه المختلفة، إذ أنّ منها ما كان سببا لنزول الوحي في أحيان كثيرة، فتشكّلت منظومة الحياة الفكرية والتشريعية للإنسان آنذاك، أمّا اليوم، ومع التحدّيات المتجددة للفكر الإنساني عامّة بظهور الفلسفات والمذاهب، يشتدّ توتر هذا التحدي في وجه الفكر الإسلامي، ويكون مطالبا بالاستجابة، وهو الذي يؤسّس الحياة على دعائم الوحي، ويعلي من شأن العقل ليكون ظهيرا للوحي في قيادة الحياة.

__ فهل ما زال العقل قادرا على فهم الوحي؟

__ وهل باستطاعته تنزيله في حياة المسلمين وإخراجهم من حالة العطالة والتخلّف؟

Muslims live on conditions and face new situations did not show them from before, different from the circumstances and conditions that I found a time of Revelation, and which dealt with its capitulation, different, as that of what was the reason for the inspiration landings in often, Gutian intellectual life and legislative system of the human being at the time, but today, and with renewed challenges human thought by the emergence of general philosophies and ideologies, strengthens tension this challenge in the face of Islamic thought, and be demanding to respond, and is, which establishes the foundations of life inspiration, and is reflective of the reason to be hadst inspiration in the leadership of life.

-- is still the mind is able to understand the inspiration?

-- and you can download it in the lives of Muslims and get them out of the state of inertia and underdevelopment?

مقدمة:

من نعم الله تعالى على الإنسان أن وهبه العقل الذي جعله له أداة لفهم الوجود وفهم كلّ ما يمكن فهمه، وجعله ميزة له على باقي المخلوقات، وقد استطاع به أن يميّز بين الأشياء، ويدرك خواصّها، ويتوصّل إلى استنباط فوائدها مشكّلا صورا واضحة لما يحيط به من مخلوقات على ظهر الأرض، وراح يتفنّن في استخدامه لسبر أغوار الكون والآفاق بما فيها نفسه هو، وغير

خاف على أحد ما اعترض مسيرته الطّويلة من افتنان به، وإخراجه عن حقيقة ما خلق له، واستعماله في ما جلب على الإنسان الضّرر المحتّم، والتّاريخ عامّة شاهد على انحرافات الإنسان المتتالية في استعمال هذه النّعمة وما أدّى به إلى الانزلاقات الكبيرة عقب ذلك.

أمّا النّعمة الثّانية التي أريد إدراجها في هذا التّقديم هي نعمة الهداية بالوحي والذي جعله الله تعالى موجّها للعقل، مزوّدا للإنسان بما يعينه على إدراك الحقّ من أمور يستحيل على عقله الوصول إليها.

وكما جعل الله تعالى الوحي مؤيّدا وهاديا للعقل، جعل العقل أداة لفهم الوحي وتنزيله في حياة الإنسان. فهل حدث في حياة المسلمين كلا الأمرين، أي هل أفادهم الوحي في توجيه معارفهم ومداركهم؟ وهل أفادهم العقل في فهم النّص وتنزيله؟ ثمّ ما مدى تأثير ذلك على واقع الأمّة الرّاهن؟

ستكون فقرات هذا المقال إجابة على جملة الأسئلة المطروحة في إشكاليّة الموضوع.

أ ـ الإنسان والعقل:

الخوض في حقيقة العقل وماهيته ليس مرادي من البحث، إنّما أريد إضفاء بعض الوضوح على موطن من مَواطن تكريم الإنسان وتمييزه عن باقي المخلوقات في قوله تعالى: " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) " [1]، يقول سعيد حوى: " تحدّثنا عن كون الإنسان مخلوقا متميّزا متفرّدا بالعقل والبيان والخلقة والقدرة على تسخير الأشياء، وأنّ هذا العطاء من الله يقابله التّكليف، فالقيام بالتّكليف هو شكر للنّعمة"[2]. إذ جعله الله تعالى مناط تكليف الإنسان، وأساس مسؤوليّته وجزائه في الدّنيا والآخرة، ورتب عليه صحّة أو فساد تصرّفاته وآثارها ليكون له في الدّين المرتضى عند الله مواقع مهمّة واعتبارات مؤثّرة.

والعقل وسيلة تعين الإنسان على الفهم والإدراك، كذا الحكم على الأشياء والتّمييز بين الأضداد، يقول عبد المجيد النّجار: "و قد جاءت معاجم اللغة توجّه معنى العقل وجهة الإدراك الذي يؤدّي إلى النّجاة، ويعصم من الهلكة." [3]ولا ننسى مقام العقل في القرآن الكريم، إذ حدّد دلالته بدقّة وقد أورده د.نجّار في قوله: " كما جاء في القرآن الكريم توجيه معنى العقل إلى تلك القوّة

---

(1) ـالإسراء 70

(2) ـالأساس في التّفسير، ط7، 1430ه-2007م، دار السلام، مصر، ج3، ص334

(3) ـ خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ط3، 1425ه، 2005م، المعهد العالي للفكر الإسلامي، وم أ،ص71

المميّزة في الإنسان التي تعرّفه بالحق والخير، وتهديه إليهما، وبالباطل والشرّ وتبعده عنهما، فهو قوّة كاشفة وموجّهة في نفس الآن، قال تعالى: " فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) "، وقال " وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ "[1]

و هكذا يبيّن القرآن الكريم في هذه الآية وغيرها أهميّة العقل، وأنّه وسيلة الإنسان إلى الفوز والفلاح، أو إلى الخيبة والخسران.

ومع تعدّد التّعاريف وكثرتها، إلّا أنّ اهتمام العلماء المسلمين لم ينصبّ على بحث العقل من ناحية الوجود، بل كان التّركيز على بحثه من حيث أهميّته، ودوره في حياة الإنسان كإنسان، لا سيما وقد رتب الحق تعالى خلافة الإنسان على العقل، لتكون دليلا على المكانة التي تبوّأها في القرآن الكريم من جهة أنّه سيكون أداة لفهم وإدراك مقاصد التّشريع، أثناء نزول الوحي، وبعد انقطاعه حتّى قيام السّاعة، ليضمن للنّصوص الشّرعيّة حيويّتها وقابليّتها لمسايرة الأحداث وتجدّدها عبر الزمان والمكان. كما أناط الشارع الحكيم تكليف الإنسان بمختلف الأحكام بالعقل، إذ أنّه أساس وشرط كلّ تكليف، وغير بعيد عن التّكليف نجد الأمانة التي عجزت عن حملها السّموات والأرض،و حملها مخلوق متميّز بما لا يوجد عند سواه وهو العقل.

ومن يتتبّع حقب التّاريخ المتتالية يجد أنّ أهميّة العقل ظهرت منذ القديم، وما الحضارات المختلفة إلّا نتاجا سامقا للإبداع العقليّ للإنسان، الذي تطوّر عبر مراحل التاريخ وحسّن من مظاهر حياته كلّها مقارنة مع باقي المخلوقات، والتي وهبت غرائز جعلتها نموذجا للنظام والتّفاني في العمل، لكنّه عمل غير عاقل ولا واعٍ، كما هو حال النّحل في نظامه أو النّمل في دأبه المتواصل، أمّا الإنسان فسعيه يميّزه الوعي، والقوّة العاقلة فيه هي الدّافع إلى هذا التطوّر الدائم بدءً بالحضارات القديمة ووصولا إلى الحضارة الإسلامية التي بلغت شوطا آخر، ونقلت الإنسان نقلة نوعيّة في المجالات جميعها، وآثار الجهد العقلي بادية للعيان على جميع المستويات، إذ تحوّل الرّجل البدوي البسيط إلى رجل حضارة، تمكّن من قيادة البشريّة طيلة خمسة قرون، فما الذي تغيّر؟ وأدّى به إلى الانتكاس؟

وإذا قلنا إنّه العقل، فهل كان قبل الإسلام لا يملك هذه القوّة الإدراكيّة ؟ والإجابة بسيطة وواضحة، وهي أنّ العقل كان وما يزال وسيبقى موجودا عند الإنسان، لكنّه قبل مخالطة الوحي كان كالآلة في يد من لا يعرف كيفيّة تشغيلها، ولمّـا جاءه الوحي فتح مداركه، وزوّده بما أعطاه من شواهد توصله إلى

---

[1] -الملك10

إدراك الحقّ، وتحقيق الخير للإنسان في الدّنيا بإنجاز مهمّة الخلافة التي خلق من أجلها، وفي الآخرة بتحقيق العبوديّة الكاملة لله وحده.

ب – الإنسان والوحي:

لئن كانت معرفة العقل محدودة من جهة وموجّهة من جهة أخرى بوسائل المعرفة المختلفة، فأنّى له أن يملك القدرة على توجيه حياة الإنسان برسم مناهجها المطلقة، الصّالحة لكلّ زمان ومكان؟ ومن هنا يظهر الحجم الحقيقي للعقل الإنسانيّ رغم ما تروّج له الحضارة الغربيّة من تعظيم لدور العقل، حتّى غدا إلاها بموت الإله عندهم، أمّا الواقع فيعارض كلّ ما يروّج في هذا الشّأن، إذ يظهر يوما بعد يوم قصوره لذاته، وما تعانيه البشريّة من ضياع ودمار إلّا دليل على ذلك، أمّا الإسلام ورغم تمجيده للعقل وإشادة آيات كثيرة به وبدوره في حياة البشر إلّا أنّه أعطي حجمه، وظهرت جليّة حاجته إلى التّوجيه والتّصويب، وإلى التّزوّد بالحقائق الخارجة عن نطاق عالم الشّهادة, والتي يستحيل على العقل إدراكها لاستعلائها على حسّ الإنسان.

من هنا يظهر أثر الوحي في تبصير الإنسان بحقائق الوجود، وجمع شتات المعرفة الإنسانيّة في نظرة كونيّة توحيديّة انتظمت بها العلائق في الوجود وانضبطت بها فهوم الإنسان ومداركه لحقيقة نفسه، وحقيقة الوجود من حوله، وحقيقة خالقه وواجبه نحوه. وحدّد الوحي للإنسان منهاج خلافته متمثّلا في أحكام عمليّة يحقّق من خلالها العبوديّة الخالصة لله، والاستعلاء التّام في الوجود دونما احتقار للنّفس أو تجبّر في الكون، بل في توازن وسير مطرد ثابت على امتداد الحياة الدّنيا مرورا إلى الحياة الآخرة عبر الموت.

وبهذا نشأت ثنائيّة طرفاها الوحي والعقل، تبصّر الإنسان بضرورتها في حياته، إذ بالوحي يتّضح له منهاج غاية وجوده، وللعقل أوكلت مهمّة الفهم والتّنزيل المؤدّية به إلى تلك الغاية[1] .

و أثمر التّلازم الفعلي لطرفي تلك الثّنائيّة خير أمّة أخرجت للنّاس، كما قال تعالى : " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) " [2] كما استحقّت أن تكون شاهدة على غيرها من الأمم في قوله تعالى: " وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣) " [3]،

---

[1] -عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص2

[2] -آل عمران 110

[3] -البقرة 143

وذلك لأنّ الله تعالى خلق الإنسان مستعدّا للفهم والإدراك، وأنزل إليه رسله مبشّرين ومنذرين لهدايته إلى الحقّ والخير، وبلوغ السّعادة في الدّنيا والآخرة، يقول محمّد نعيم ياسين: "من أجل ذلك خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم، ونُفِخت فيه الرّوح بأمره سبحانه لتكون موضوعا ومحلّا لكثير من الغرائز والقابليّات والقدرات التي تمكّنه من حمل الأمانة، وفي مقدّمة هذه الغرائز غريزة العقل وغريزة التّفكير وغريزة الإرادة. ثمّ خلق الله تعالى للإنسان لخدمة تلك الرّوح وتنفيذ إرادتها بدنا صالحا للقيام بما تأمره به تلك الرّوح. ولو وقف الأمر عند هذا الحد لما استطاع القيام بتلك الأمانة حتّى يأتيه الهدى من ربّه في كتب منزّلة على رسل من بني جنسه تبيّن له الحقائق والمصير، وما ينتقي وما يلتزم به، وكيفيّات الطّاعة المطلوبة" [1] . ويواصل الكاتب في بيان حاجة الإنسان إلى الوحي لما يزوّده به من أمور ضروريّة، بإيراد قوله تعالى:" وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) "[2] ،كذلك قوله تعالى: "وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) "[3] ثمّ يقول : "و ذلك في نصوص محمّلة بالمعاني، جعلها سبحانه آيات منيرة قابلة لأن يستقبلها التّقويم الإنساني، بحيث إذا استقبلها ونفّذها سعد في الدّارين. فظهر ممّا تقدّم أن أحسن أوضاع الإنسان في الدّارين مرهون تحقّقه بتحقّق ثلاثة أمور معا: الأوّل هدى من الله عزّ وجلّ، والثّاني إدراك هدى الله تعالى، والثّالث تنفيذ الإنسان ذلك الهدى" [4] . ويظهر من كلّ ما سبق أنّ الوحي هو سبيل الإنسان إلى السّعادة في الدّنيا باتّباع الهدى والوصول إلى الخير والنّفع باتّباعه وفي الآخرة التي ستكون حصادا لما كان منه في الدّنيا من عمل صالح، واتّباع للصراط المستقيم، لتظهر آثار الوحي جليّة في كونها المنهج القويم لتحقيق غاية الخلق ومقصد الوجود الإنساني.

جـ- علاقة الوحي بالعقل: إذا تكلّمنا عن ماهية كلّ منهما فسيبدو لنا عدم وجود تقاطع بينهما، إذ الأولى ملكة مخلوقة في الإنسان، والثّاني كلام الله تعالى أنزله لعباده ليكون لهم هاديا، وقائدا نحو حياة موفّقة وآخرة سعيدة، لكنّ النّظر المدقّق يوصلنا إلى إدراك علاقة وجودية بينهما، إذ أنّ الوحي جعله الله تعالى نافذة يخلص من خلالها العقل إلى فهم الوجود، وإدراك غايته، والانطلاق من خلاله إلى عالمي الشّهادة والغيب للإفادة منهما بما يقيم نظام الحياة، ويدفعها إلى الأحسن دوما، كما أنّ الوحي لا بدّ لفهمه من عقل نيّر، قادرا على استنباط

(1) -محمد نعيم ياسين، مباحث في العقل، ط2-2011م، دار النفائس، الأردن، ص224.

(2) -إبراهيم 04

(3) -التوبة 115

(4) -محمد نعيم ياسين، مباحث في العقل،ص224

مكامن الخير والصّلاح فيه من جهة، وعلى تنزيله في واقع الحياة ليغدو منهجا لها من جهة أخرى على اعتبار أنّ الله جعل نصوص الوحي أوعية ذات قدرة لا متناهية على استيعاب الفهوم والمعاني المتجدّدة، ويفسّر ذلك أهليّة القرآن لقيادة البشرية إلى قيام السّاعة. يقول عبد المجيد النجّار: " ويتحصّل ممّا تقدّم أنّ الغاية الوجوديّة للإنسان، والمنهاج المؤدّي إليها اختصّ بالإرشاد إليهما الوحي الإلهيّ، وأوكلت مهمّة الفهم والإنجاز فيهما إلى العقل البشري، وهو التّكليف الذي رتبت عليه المثوبة في حالة الفوز، والعقوبة في حالة الخسران."[1]

كما أنّ ترتيب التّكليف الذي احتوته نصوص القرآن والسّنّة على العقل دليل آخر على العلاقة الوطيدة بين العقل والوحي، إذ أنّه لا يفهم التّكليف، ولا تدرك مقاصده إلّا بالعقل، كما لا يكلّف بالتّشريعات إلّا العاقل الذي يقدر على استيعاب الخطاب الإلاهيّ المنظّم لحياته وعلاقاته، ليكون وجود العقل لازمة من لوازم الإنتفاع بالقرآن، ويكون الوحي لازمة من لوازم اهتداء العقل إلى الحقّ .

وقد أخذت هذه العلاقة حيّزا من اهتمام الفكر الإسلاميّ، بين من ينكر هذه العلاقة سواء ممّن غلّبوا الوحي إلى درجة إلغاء العقل، أو الذين غلّبوا العقل إلى درجة تقزيم الوحي أو إبعاده عن مجالات الحياة، خاصّة المعاصرة، وبين هؤلاء وهؤلاء بقيت هذه الثنائيّة بين الأخذ والرّد، بينما الواقع يفرض معالجة جادّة لهذه الإشكاليّة، بتوضيح ما يؤدّي إلى السّداد، وإلى تفعيل هذه العلاقة بما يعطي الوحي من قيوميّة، ومرجعيّة عليا، وللعقل من قدرة على الاستنباط والفهم والتّنزيل، بدل انقسام المفكّرين المسلمين في جدل عقيم لا يزيد واقعهم إلّا تعفّنا وحياتهم إلّا بعدا عن روح الوحي وصفاء العقل.

والتّاريخ في الحقيقة هو المرآة العاكسة للماضي في الحاضر حتّى نستشرف منها للمستقبل، إذ لو رجعنا إلى عهد المسلمين الأوائل لوجدنا أنّهم أدركوا دون فلسفة هذه العلاقة، وقاموا بتفعيلها فكانت عقولهم وقلوبهم في ترقّب دائم لجديد الوحي، وتلقّيه بالاستيعاب والتّطبيق فهما وتنزيلا، ولنا في نساء الأنصار خير عبرة، لمّا نزلت آية الحجاب شققن مرطهنّ واستترن بها، لإدراكهنّ أنّ كلّ ما يأتي من عند الله لا بدّ أن يقابل بالتّطبيق الفوري، لليقين – الذي نفتقد إليه- أنّ الخير كلّ الخير في الأوامر الإلاهية المتنزّلة إليهم بالوحي، وحري بالأمّة الإسلاميّة أن تعتبر بهذه المواقف، خاصّة وهي على يقين أنّها مواقف أنتجت جيلا من العلماء العاملين، ورعيلا من المؤمنين المخلصين الذين حفظوا الدّين وبلّغوه للعالمين خير تبليغ، لكن عندما تجزّأت هذه الثنائيّة

[1] -عبد المجيد النجار،خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص29-30

وضاعت حقيقة العلاقة بين طرفيها، تقطّعت أوصال الأمّة، وضاع منها الرّشد، وفقد الكتاب معناه، كما جاء في الحديث الذي حذّر فيه الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من يرفع العلم، لما رواه زياد بن لبيد رضي الله عنه قال: "ذكر النبي صلى الله عليه وسلم شيئا فقال وذاك عند أوان ذهاب العلم قال قلنا يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة قال ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة أوليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل لا ينتفعون مما فيهما بشيء " [1].

وأرى أنّ تحذير الرّسول صلّى الله عليه وسلّم متعلّق بضياع العلاقة الوطيدة بين العقل والوحي، ودليل ذلك جوابه على استفهام زياد بن لبيد، الذي بدا عليه الاستغراب والدّهشة وهو حال كلّ الحاضرين، فكان ردّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم من الواقع الذي يعايشونه ويعرفونه، بذكر أحوال أهل الكتاب الذين فقد كتابهم معانيه، أي فقد تأثيره في الحياة، وهو تأثير مرهون بمدى فهم الكتاب، وترجمة هذا الفهم إلى سلوك حياة منبعث منه وراجع إليه.

ولن تتأتّى هذه العلاقة إلّا بفتح باب الاجتهاد، المبنيّ على النّظر والاستنباط بما يُكْسِب الإنسان القدرة على اقتحام العصر، ومواجهة تغيّرات الزّمان والمكان بالوحي الذي ينتج لدينا وعيا يزوّده بالطّاقة الإبداعيّة التي تجعله يستوعب الماضي، ويحلّل الحاضر، ومن ثمّ يصل إلى نحت المستقبل وفق نظرة متجدّدة لا تسعى إلى تكرار صور الماضي، إنّما تهدف إلى إبداع صور جديدة للمستقبل.

د- أثر تعطّل علاقة العقل بالوحي: عرفنا ممّا سبق أنّ العقل في حاجة إلى توجيه فوقيّ يسدّد أحكامه، والهدي الرّبانيّ يعلو ولا يُعْلَى عليه في القيام بهذه المهمّة، إذ الخالق أعلم بخلقه وبما يصلح أحوالهم، ويؤسّس الحياة على دعائم الوحي ليخرج البشريّة من الظّلمات إلى النّور، وسأستأنس بالواقع والتّاريخ لإثبات صحّة هذا الطّرح، فمن التّاريخ نأخذ الحضارات القديمة ونعقد مقارنة لها بالحضارة الإسلامية، فالحضارة اليونانيّة أو الإغريقيّة أو المصرية القديمة أبدع فيها العقل بما لا تزال شواهده قائمة إلى الآن، لكنّ الإنسان كان غائبا في كلّ المنظومة، إذ يكفي أن نعرف ما بلغه الرق وبيع الإنسان إلى درجة أنّ الرومان كان إذا احتاج الواحد منهم إلى مال لتسديد ديونه يبيع زوجته أو أولاده، وعند المصريّين القدامى، لبناء هرم لفرعون منهم يموت آلاف العبيد تحت الأنقاض والحجارة، لا لشيء إلّا لينام فيه وكنوزه بعد موته، أمّا الحضارة الإسلاميّة فقد كان الإنسان محورها، منطلقها ومنتهاها، وما بلوغ الحضارة

[1] -مسند أحمد، مسند الشاميّين، حديث زياد بن لبيد، مسألة 17019

مقاماتها الماديّة والروحيّة إلّا بسلطان الوحي، الذي قاد العقل نحو الخير والصلاح، ليبدع للإنسانيّة حضارة سعت بالإنسان نحو تحقيق ذاته، وشقّ طريقه باتّزان نحو تسخير الكون، وممارسة السيادة فيه نحو تحقيق العبوديّة لله.

أمّا إذا تحوّلنا بالحديث عن الحضارة الغربيّة التي تريد من خلال خطاب العولمة إلغاء الآخر عامّة، والمسلم وحضارته خاصّة، نجدها ترسم للإنسان طريق الضّياع الذي لم يجد وسيلة للخروج منه. يقول عبد الحميد أبو سليمان: "كان ضعف البعد الرّوحي، وانعدام هداية الوحي، وقد تركا الإنسان الغربيّ مطلقا مادّة رخيصة هملا بين يدي نفسه وعقله وإدراكه البشريّ المحدود، هما أصل داء الحضارة الغربيّة المعاصرة في الغرب والشّرق، وكلّما بالغت الحضارة الغربية في إذابة ما بقي لها من بقايا نفحات الروح والرّسالة، والرّكون دونها إلى العقل والمادّة، كانت حالها أسوء وأزمتها أشدّ." [1]

وحال الأمّة الإسلاميّة من انفصال الوحي عن العقل ومنه عن الحياة خير شاهد على ما قدّمتُ له، وذكر حديث بن لبيد مرّة أخرى يفسّر هذه الحال، التي أضاع فيها المسلمون التّمسّك بالعروة الوثقى، وضيّعوا معاني الكتاب الذي ما يزال بين أيديهم، لكنّه كمن يملك سيّارة لا يعرف شيئا عن قيادتها، فيكتفي بالانبهار بها والسّعادة الغامرة عند النّظر إليها، وهو حال المسلمين مع القرآن، وما له في نفوسهم من عزّة وقداسة وما في قلوبهم من رهبة وإجلال، لكن طاقة الدّفع التي أحدثها في المسلمين الأوائل تعطّلت بعد ما يقارب خمسة قرون من العطاء والتّسامي نحو تبوّأ القمم، ليحلّ محلّه التّدهور والانغلاق على الذّات، بالخروج من التاريخ والانقلاب من مرحلة الفعل والتّأثير إلى مرحلة الانفعال والتّأثر، ولئن تعدّدت الأسباب فإنّ أهمّها العطالة الإبداعيّة التي أصابت عقل المسلم، فانحرفت به عن العطاء إلى الجمود والتقهقر في انحدار لا يعرف وقوفا، وتظهر جليّا حقيقة العلاقة بين الوحي والعقل الذي أصبح كلّا على الإنسان أينما يوجّهه لا يأت بخير، مصداقا لقوله تعالى: "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦) " النحل 76 . يقول جودت سعيد: " فإذا فهمنا معنى الفعاليّة واللّافعالية فبإمكاننا أن نفهم أنّ الكلمة التي وردت في الآية وهي كلمة "الكلّ" هي الكلمة القرآنيّة المقابلة لمصطلح اللافعاليّة والسّلبيّة، بل كلمة القرآن أدلّ على هذا المعنى حيث

---

[1] -عبد الحميد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، ط2، 1430ه، 2009م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وم أ، ص 17

إنّ كلمة "الكلّ" لا تدلّ على اللافاعلية فحسب، بل تدلّ على أنّه عبء على من يتولّاه سـواء كان فـردا أو مجتمعا" (1)

وإذا أدرك المسلمون أنّ هذا أحد أسباب تخلّفهم وخروجهم من الدّورات الحضاريّة المتعاقبة، فلا بدّ من التّركيز على دراسته واستخلاص العبر منه، لا سيما والقرآن الكريم يوجّه أنظار المسلمين إلى قيمة التّاريخ، وضرورة الاعتبار من دروسه وقصصه، التي ما عرضها الله تعالى عليهم إلّا لتعفيهم من دفع الأثمان مكرّرة جرّاء تكرار الأخطاء ذاتها.

ه- العقل بين التّقديس والتّهميش:

وما دمنا نتكلّم عن تعطّل العلاقة بين الوحي والعقل في حياة المسلمين وما أدّت إليه من عطالة، فإنّه من النّافع التعرّض إلى وجه من أوجه هذه الإشكالية، لخطورته التي المتمثّلة في عدم انضباط مفهوم العقل في الفكر الإسلامي، وليس المجال في هذه العجالة التّعرض إلى ماهية العقل، إنّما قصدت من إيضاح هذه النّقطة أنّ العقل في الفكر الإسلامي تأرجح بين طرفي الإفراط حتّى أعطي منزلة تصل أو تتجاوز منزلة الوحي، وكمثال بسيط طرح المعتزلة في نقاط كثيرة مثل خوضهم في مسألة إيجاب الأفعال الإنسانيّة، إذ يرون أنّ العقل يمكنه أن يحلّ محلّ الوحي في إيجاب الأفعال في حالة إنسان لم يبلغه وحي، يقول عبد المجيد النّجار: " أمّا المعتزلة فإنّهم أسّسوا رأيهم في الإيجاب على رأيهم في التّقدير، فلمّا كان الوحي عندهم هو المقدّر لكلّ الأفعال الإنسانيّة، والعقل يشترك معه في التّقدير في بعض تلك الأفعال، فإنّ الإيجاب فيما اختصّ الوحي بتقديره يكون موقوفا عليه، ولا مدخل للعقل فيه. وأمّا الأفعال التي تدخل في مجال تقدير العقل، فإن جاء فيها وحي فهو الموجب فيها، والعقل ليس مدركا بذلك الإيجاب لإدراكه القيم التي بني عليها، وإذا لم يرد فيها وحي على إنسان ما فإنّ ذلك الإنسان يكون عقله موجبا للأفعال التي هي من جنس ما يقدر على تقديره، ويكون بالتالي مستحقّا للمدح والذّم، وللثّواب والعقاب، ولهذا فقد أثبت المعتزلة التّكليف العقلي على من لم يبلغه الوحي" (2).

وهذا المثال كاف لما لقيه العقل عندهم من تقدير ساوى فيه الوحي في إيجاب الأفعال. ولعلّ هذا الموقف يؤدّي إلى إقحام العقل في ضرب من ضروب النّقض في الحاكميّة الإلهيّة بناءً على أنّ العقل وما وهبه الله إيّاه من قدرة على

---

(1) -جودت سعيد، الإنسان كلّا وعدلا،ط1، 1414ه، 1933م، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ص14

(2) -عبد المجيد النّجار،خلافة الإنسان بين الوحي والعقل،ص82

الكشف والنّظر والتّقدير، إلّا أنّه ليس مؤهّلا للإيجاب، إذ هو من اختصاص الوحي وحده.

أمّا في الطّرف المقابل فنجد من يلغي أيّ دور للعقل، ويجعله متلقّيا للوحي مطبّقا له دون إمكانيّة الفهم والتّأويل والخوض في نصوص الوحي. فقلّلوا من شأن العقل، وغمطوه حقّه، وقصروا غاية المعرفة الإنسانيّة على ظاهر النّصوص، ولا يخفى خطر هذا المنحى على حياة الإنسان، ووظيفته الوجوديّة التي لا تتحقّق إلّا بعقل مسترشد بالوحي، وفعل محكوم بالوحي والذي لا يفهمه إلّا العقل ليستخرج أحكامه وفق مقاصد إلاهيّة من التّشريع لا يصل إليها إلّا العقل. وبتهميش العقل يتجمّد، ويغلق باب الاجتهاد والإبداع في كافّة مجالات الحياة، إذ الوحي جاء لهداية الإنسان إلى ما فيه خيره في الدّارين وأنّه لا يعيش في الدّنيا إلّا من أجل الآخرة، ولا يكون في الآخرة إلّا على قدر ما قدّم في الدّنيا من طاعة وعبوديّة لله تستغرق كلّ أفعاله وأقواله، لتشمل نيّاته، وقد قال الرسول صلّى الله عليه وسلّم : "إنّما الأعمال بالنّيات"[1]

وإذا رجعنا إلى مدرسة التّاريخ، فإنّها تعلّمنا أنّ ما نجح به أسلافنا هو ثنائيّة الوحي والعقل معا، يقول عبد المجيد النجّار: " فليس الوحي والعقل إلّا وسيلتين للتّعريف بالحقيقة فيما ينبغي للإنسان أن ينتهج من أنماط في الفكر والسّلوك ليتعامل مع الكون بما يؤدّي إلى غاية وجوده، فكلّ بحث فيهما من هذا الوجه يرتبط شديد الارتباط بالبحث في حقيقة الإنسان ذاته، وفي وظيفته، وفي الغاية من وجوده"[2]، ومتى انضبط مصطلح العقل في أذهان المسلمين، وعرفوا حقيقة وظيفته ومنزلته في الشريعة الإسلاميّة بما نزّل في القرآن الكريم من نصوص تشيد بالعقل، وتعلي من شأنه، سيعرفون حينها أنّه نعمة إلاهيّة رتب عليها الله تعالى التّكليف، لحاجة الإنسان إلى إدراك أحكام الشريعة الإسلاميّة، وفهم الخطاب الإلاهيّ الموجّه إلى البشر، الحامل لهذه التّكاليف والأحكام، فهما يساعده على استيعاب الخطاب، وإدراك المقصد منه، ومحاولة تنزيله في حياة الإنسان في إطار الظروف الزمانيّة والمكانيّة، ومسايرة خصوصيّات الإنسان المتباينة، لتصلح بها في النّهاية حياته، وتستقيم بها أخلاقه وسلوكاته فيتحقّق بهذا الانضباط، الفهم الصّحيح، والتطبيق الجيّد لمقتضى النّصوص القرآنيّة.

و- ضرورة تجديد الوعي:

هي ضرورة تطرح نفسها لكونها سبيل الأمّة إلى استنقاذ نفسها من دركات الانحطاط الذي تعانيه، ويتكرّس في واقعها بوتيرة متصاعدة، ليزيدها تهميشا وبعدا عن التّأثير والفعل، ولن يتمّ لها ذلك إلّا بتجديد وعيها، فيستقرّ فيه

(1) -البخاري، صحيح البخاري، باب بدء الوحي، رقم1

(2) -ع المجيد النجّار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص35

حجم ما تعانيه وفداحة غيابها عن السّاحة الحضاريّة العالميّـة، وهي المؤهّلة الوحيدة بما لديها من وحي وهدي يمكّنها من قيادة البشريّة الحائرة وهي في قمّة التحضّر المادّي، ومتى ما تمّ للأمّة هذا الإدراك فسوف يتبعه إحساس آخر بثقل مسؤوليّتها في تحمّل رسالتها الهادية، وأخذ مواقع الرّيادة في الكون والحياة.

وأرى أنّه من الضّروريّ _قبل الحديث عن تـجديد الوعي_ أن أتعرّض ولو بإيجاز إلى تعريف الوعي، حتّى أخلص إلى التسلسل الذي يوصلني إلى الكلام عن ضرورة تجديد الوعي.

تعريف الوعي:

إنّ كلمة "وعي" وردت في القرآن الكريم كقوله تعالى: " وتَعِيهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ" الحاقّة 12، ووردت أيضا في قوله تعالى " وجَمَعَ فَأَوعَى"، أمّا في الموضع الأوّل فبمعنى الحفظ والفهم. قال سعيد حوى { " وتَعِيهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ" أي: وتفهم هذه النعمة وتذكرها أذن واعية، أي حافظة سامعة، أي : يحفظها ويفهمها كلّ من له سمع صحيح، وعقل رجيج، قال ابن كثير: "و هذا عام في كلّ من فهم ووعي"}[1] ؛ أمّا في الموضع الثّاني فهي كلمة مرادفة لجمع المال وتخزينه وعدم أداء حقّه، يقول سعيد حوى: { (وجمع) المال (فأوعى) أي فجعله في وعاء ولم يؤدّ حقّ الله منه. قال ابن كثير: "أي تدعوا النّار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها، وقدر لهم أنّهم في الدّار الدنيا يعملون عملها، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق، ثمّ تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطّير الحبّ"}[2] .

ويبدو أنّ كلمة "وعي" تطوّرت وهي تواكب متغيّرات الحياة، حتّى أخذت معنى الفهم الصّحيح، والإدراك المؤدّي إلى سلامة الفكر وسداده، يقول عبد الكريم بكّار "وكان علماء النّفس في الماضي يعرّفون الوعي بأنّه شعور الكائن الحيّ بنفسه وما يحيط به" [3]،وهو يقصد أنّ هذا التّعريف محدّد ضيّق، ما فتئ يتّسع ويتعمّق مع تقدّم الأبحاث العلميّة، والدّراسات المتخصّصة، يواصل عبد الكريم بكّار قائلا: " ومع تقدّم العلم وتعقد المصطلحات والمفاهيم أخذ مدلول(الوعي) ينحو نحو العمق والتفرّع والتوسّع، ليدخل العديد من المجالات النفسيّة والاجتماعية والفكريّة، وصار هناك كلام كثير عن تنمية الوعي وتجليّاته، إلى جانب الحديث عن تشتّته وانقساماته، وعلاقته بالخبرة، والثّقافة والنظام العقلي، كما اكثرت المجالات التي يضاف إليها الوعي، فهناك الوعي بالذّات، والوعي الاجتماعي والوعي الطّبقي والسّياسي... وكثر الحديث عمّا يسمّى اللّاوعي." [4]

وبعد هذا التطوّر في معنى الوعي وتداخله مع كلمات قد تلتبس بمعناه أحيانا كثيرة ك"الفكر" و"العقل" و"الثّقافة" وحتّى كلمة الخبرة، فالوعي هو: "محصلة عمليّات ذهنيّة وشعوريّة معقّدة، فالتّفكير وحده لا ينفرد بتشكيل الوعي، فهناك الحدس والخيال والأحاسيس والمشاعر والإرادة والضّمير،

---

(1) -سعيد حوى، الأساس في التفسير، ط7، 1430ه-2009م، دار السلام، مصر، الجزء 6، ص297

(2) -المرجع نفسه،ج6، ص302

(3) -عبد الكريم بكّار، تجديد الوعي،ط1،1434ه2013م،دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، ص9

(4) -المرجع نفسه، ص9

وهناك المبادئ والقيم ومرتكزات الفطرة وحوادث الحياة والنّظم الاجتماعية، والظروف التي تكتنف حياة المرء. وهذا الخليط الهائل من مكوّنات الوعي، يعمل على نحو معقّد جدّا، ويسهم كلّ مكوّن بنسبة تختلف من شخص إلى آخر، ممّا يجعل لكلّ شخص نوعا من الوعي، يختلف عن وعي الآخرين" [1].

و المهمّ من هذا العرض هو استجلاء مفهوم واضح للوعي، يظهر من خلاله أنّه قابل للتشكّل وفق معطيات تنعكس لتنقل الفرد أو الأمّة إلى تحسين واقعها وفقا لهذا الوعي، وهو المطلوب من الأمّة الإسلاميّة التي تحتاج لكي تعيد إلى العقل فعاليّته وقدرته على الإبداع، أن تجدّد وعيها بالأبعاد الخطيرة للأزمة التي تعانيها والتي يصعب تحديد معالمها بدقّة، وقد تولّى المفكّرون المسلمون بحثها، وبيان خطورة آثارها على السّير الوجودي، والصّيرورة الحضاريّة للأمّة، وقد حاولوا إيجاد الحلول لها بناءً على ما اقتنعوا به من أدواء الأمّة وعللها المتشابكة بعضها ببعض،ولخّصوا المطلوب في إعادة تشكيل وعي الأمّة حتى يستقرّ فيه ضرورة إدراك خطورة الوضع، واستشراف الحلول النّاجعة له خارج معطيات الواقع الرّاهن وبعيدا عن حدود النّظام الاجتماعي السّائد، وأبعاد الحياة الضنكى التي نعيشها، ما يفرض عليه من سعي إلى تجديد نفسه، والاستعداد لاستيعاب حقائق جديدة بتغيير بنائه الخاصّ، وتجديد وسائله إلى ذلك، حتّى يحسن الاندماج في الواقع وتفكيكه لإعادة تركيبه وفق فهم صحيح، ونقد موضوعيّ، مستلهما من القرآن الكريم منهجا أقوم في إصلاح الحياة والنّهوض بها من جـديـــــد، متحسّسا الأسس والـمنطلقات التي قامت عليها الحضارة العربيّة الحديثة، منتبها يقضا من الثّقافات المعاصرة التي تتجاذب الإنسان، وتفنّنها في تجاوز قيود الزمان والمكان في إطار العولمة الغاشمة.

ومتى استيقظ في ضمير الأمّة أهميّة تجديد هذا الوعي، لصياغة وتوجيه العقل المسلم نـحو فهم صحيح للماضي، واستيعاب شامل للحاضر، واستشراف ثابت للمستقبل، يستطيع العقل أن يتخلّص من قيود لطالما كبلت حركته ومنعته من أداء وظيفته حتّى أصبح في حالة تشبه الموت بغيابه، ولنحذر الوقوع فيما يغضب الله منّا، وهو الذي ذمّ ألوانا من التصرّفات والسّلوكات الخاطئة، والتي ما كان لها أن توجد لو أنّ وعي أصحابها كان يقظا وفي الوقت ذاته قادرا على التّأثير بالوجه المطلوب وأداء وظائفه، مصداقا لقوله تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) " [2] ،قال كذلك "وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا

[1] -المرجع نفسه،ص1
[2] -البقرة، الآيات 11، 12

يَشْعُرُونَ (١٢٣) " [1] . وتضاف إليها آيات كثيرة توجّه فكر الإنسان وتنمّي وعيه من خلال حثّه على التفكّر والتدبّر والاعتبار في أحوال الوجود وسيرورة الأمم، ليبعد الرعونة والاعتباطية عن حياته، ويجعل فهمه للسّنن الربّانية يقوده نحو الصّراط السّويّ، ووعيه يمتدّ إلى مواطن الخير والإصلاح.

وهذا الطّرح لا يعني غياب الوعي التّام عن حياة الأمّة، إنّما أعني به أنّه لمّا يصل بعد إلى القدرة المحرّكة والدّافعة القويّة للطّرح الفكري الذي يقود إلى الفعل الحضاري المرتقب، لأنّ المتتبّع للصّحوة الإسلامة في القرنين الأخيرين يلاحظ أنّ توتّرها يشتدّ شيئا فشيئا، خاصّة في القرن العشرين وما تلاه، نلاحظ يقظة غير مسبوقة للفكر الإسلامي، مقارنة بالحقب التاريخيّة الماضية، يقول زكي الميلاد: "لكنّ الذي أراه أنّ الفكر الإسلامي، وبالذات في النّصف الثاني من الثّمانينيّات، أصبح شديد الوعي بمسائله وقضاياه وموضوعاته، وذلك نتيجة اقترابه المباشر من الواقع الموضوعي بكلّ تعقيداته، وتناقضاته وتشابكاته، تواصلا وتفاعلا وتحريكا . الاقتراب الذي كشف عن مناطق الفراغ الواسعة في بنية الفكر الإسلامي، والتي كانت تتسع مع مرور الوقت، وعن الغياب الواسع عن العصر وقضاياه وتطوّراته، وعن أزمة الحضور في المجال العالمي بأحداثه ومشكلاته"[2] . ويحدّ زكي الميلاد من هذا التّفاؤل الحذر من بيان ما واجه هذه الصحوة وهذا الوعي من اندفاع وحماس أثّرا في إنجاز مهمّة النهوض، وإثـمار الجهود المبذولة، لكنّه تأثير حمل الخير الكثير، إذ جعل هذا الفكر يترشّد ويتماسك لينضج بعيدا عن الضّجيج والصّخب، بامتحان ذاته، والبحث عن مكامن الدّاء، وأسباب العطالة عن دفع حركة الفعل والتغيير في الأمّة، ثمّ امتحان مناهجه وأطروحاته لنقد تصوّراته والنّظر في وسائله حتى يدرك حاجته إلى التجديد والتطوير من خلال الاحتكاك بالواقع الدّاخلي والخارجي، والتّعمل مع الأفكار عبر هذا الواقع، ليس لحلّ المشكلات، بل لهدف أبعد وهو تحقيق الشّهود الغائب، وتحمّل أعباء الدّعوة إلى الله وإبلاغ الحقّ إلى النّاس من خلال ممارسة وظيفة عمارة الأرض وتحقيق العبوديّة الخالصة لله تعالى، بعد الخروج بالعقل والفكر الإسلامي من الجمود والتحجّر، وترك الحنين إلى الماضي وإنجازات الأجداد، بالخروج عن الإنكماش حول الذّات الذي كان بمثابة الشرنقة التي نسجها الفكر الإسلامي لنفسه، وكتم أنفاسه داخلها، حتّى ينغلق عن العصر مختارا حينا ومضطرّا آخر، ثمّ يستفيق ليجد نفسه خارج دورة الحياة أصلا.

ز_ جدليّة الوعي والواقع:

---

(1) -الأنعام الآية،123

(2) -زكي الميلاد، الفكر الإسلامي قراءات ومراجعات، ط1، 2012، الشبكة العربية للأبحاث والنشر،بيروت، ص11

إنّ ما طرح سابقا من أفكار يضطرّنا كأمّة إلى الإبقاء على جدليّة الوعي حيّة مع الواقع المتغيّر، إذ الوعي مطالب بمزيد من الإستيعاب والإدراك للواقع المتجدّد، الذي يعينه على تجديد نفسه، ثمّ من خلال تجديده لتركيبه، تزداد قدرته على فهم الواقع والإحاطة به.

لكنّ الذي يقف عقبة في طريق بقاء هذه الجدليّة وحياتها، هو نظرة الأمّة إلى وعيها على أنّه اكتمل، وهو الآن في أعلى درجاته التي لا ترى بعدها حاجة إلى تغييره أو تجديده، كما تنظر إلى الواقع أنّه توقّف عن السّيرورة والتغيّر، والتزام الثّبات، وهو الخطأ الجسيم الذي يجمّد الفكر ويكبّل الوعي، ثم بعد ذلك يأتي الفشل الذّريع في التغيير رغم المحاولات؛ والمفروض أنّ أمّة تملك كتاب الله الهادي، والنّور الخالد، حريّ بها أن تبقيه حيّا بمواكبة الأحداث المتجدّدة في كلّ حين، والتي تمثّل إبتلاءات أمام الفكر والوعي الإسلاميّين، لتصل جاهزيّته إلى أعلى توتّراتها، فيقضي على العطالة والعجز، ويستطيع تحديد نقطة الانطلاق، وتحقيق الشّروط التي يتطلّبها النّجاح، لبلوغ الأهداف المبتغاة بإذن الله.

ولا ننسى خطورة غياب هذه الجدليّة، بما يجعل الوعي –إن وجد- مستعملا في غير نافع، كانشغال مفكّرينا –و هو مثال بسيط- بمسألة الفِرَقْ، والخوض في تفاصيل قضايا لم تعد موجودة، والانكباب على دراسة أسباب نـشـأتـها وتطوّرها، ونقد أفكارها، وربّما إخراج أصحابها عن الملّة لانحرافاتهم المختلفة، والغلوّ الذي نسب إلـيهم، وكان -بدل هذا الانشغال- من الواجب تركيز الاهتمام على الانحرافات العقديّة الخطيرة، التي يعيشها العالم اليوم، وتتبنّاها الفلسفات والمذاهب المعاصرة، لدراستها واستيعابها، والاستجابة إلى تحديّاتـها، ثـمّ التّصدّي لـها وتقديم البديل -و هو المهم في العمليّة كلّـها-، للخروج من حالة الانفعال إلى الفعل، والابتعاد عن المرحلة الدّفاعيّة التي طالما عاشها الفكر الإسلامـيّ، وجعلت إنتاجه دائما ردّ فعل على تحدّيات وجدت، وتركت بصماتها لتأتي بعدها تحدّيات جديدة تضطرّه إلى البقاء في هذه الحالة، وعدم التمكّن من تجاوزها، أو سدّ الطّريق أمام تسلسل حلقاتـها التـي يُـحكِم الباطل وأهله إغلاقها، لتخنق الإبداع الإسلامي، وتشلّ قواه عن طرح البديل في ساحة الفكر، والذي إذا ما تمّ فسوف يمحق الباطل ويضطرّه إلى التّراجع.

ويحضرنـي في هذه الفكرة مثال بسيط، يوضّح ما قمت بطـرحه وهو محاولة إقناع مـجرم تعوّد على السّرقة، واتّخذها وسيلة للكسب، وعندما يقتنع لا حاجة إلى الاستمرار بتذكيرة بحكم السّرقة والكسب الحرام، ما دام قد ترك سبيل الإجرام، لكنّه يبقى في سلوكه وفكره فراغ، يجب استغلاله وإلّا عاد أكثر إجراما وعدوانيّة، إذ كان عليّ أن أدلّـه إلى خيـريّـة المال الحلال، وأفتح أمامه

أبواب البرّ بمساعدته على ولوجها، حتـى أتأكّد من تخطّيـه لما كان فيه. فكذلك وعي المسلمين وفكرهم الذي يجب أن يركز على متغيّرات الزّمن الحاضر، ومعالجة مشكلاته وتحدّياته، وجعل الماضي للاستئناس واستخلاص العبر، المساعدة على تصوّر جديد للمشكلات الجديدة وحلّها، بطرائق جديدة، وبوتيرة متزايدة كوتيـرة الأحداث نفسها، وإلّا بقينا نعاني من التّأخّر الدّائم، وعدم اللّحوق أبدا بالواقع الذي سيكون بالنّسبة لنا ماض. يقول عبد الكريم بكّار: " كثيرا ما يعاني الوعي من بطء متابعته للواقع، وهذا البطء يجعل الوعي متخلّفا عمّـا ينبغي أن يكون عليه عقودًا وأحيانا قرونا، مـمّـا يجعل كثيرا من جهودنا غير ذي معنى. وهذا التّخلّف يقع في حقول الأساليب والوسائل."[1] .

خاتمة:

ولئن كان من التّحدّيات الراهنة عجز العقل المسلم عن الإبداع مدّة من الزّمن، جعلته يدور حول نفسه، يستهلك ذاته بدل تجديد طاقاته الإبداعيّة التي لا ينفكّ عنها، فإنّ حقيقة العلوم والمعارف والحضارة ذاتها تراكم للخبرات البشريّة، ومواصلة العقل عمله بصفة مطّردة تبرهن على توسّع دوائر الفهم، وتلاقح طاقات العقل مع الواقع، بما فيه من ثقافة ومفاهيم وتحديّات، لتوليد الجديد من الفكر، والمزيد من إنجازات العقل الباهرة؛ وهو ما أمر به القرآن الكريم من إعمال العقل عبر التدبّر والنّظر في آيات الكون المشاهدة في الآفاق والأنفس، والتي تحث المسلم على النّظر حوله وفي نفسه ليلاحظ ويتوصّل إلى صفاء الذّهن، بزوال غشاوة الجهل عنه، حينها فقط يستطيع أن يوسّع من حقل مداركه، وتكون له القدرة على التّجاوب مع المعطيات المتجدّدة، ليكتشف سنن الله في الخلق، ويفقه حركة الوجود في أبعاده المختلفة، ويغيـّر من عناصر رؤيته فيتغيّر الكون من حوله، وتكون هذه هي بداية رحلته العلميّة بين التجدّد الدّائم والفاعليّة المتزايدة، عبر حدوث التوتّر المنتج، والهمّ الجادّ الذي يتطلّع إلى الماضي من حيث كونه خبرات قديمة يـمكن بعثها من جديد، سواء بالنّقد أو التّمحيص، أو البحث فيها عن مكامن القوّة والضّعف معا؛ أمّا العقل المسلم فواجبه مضاعف نحو الماضي عساه يـجد فيه آفاقا جديدة للفهم، تجعله يتجاوزه بدل الوقوع في أسره كما هو الحال، ثمّ تكون له التفاتة إلى الحاضر، ليجعله عاملا من عوامل التجدّد والانبعاث، بالنّظر إلى المعطيات من داخله ومن حوله ومن خارجه، ويمـارس معه الدور نفسه، ليتـم له التّجديد والتوليد معا؛ وأخيرا يتطلّع إلى المستقبل فيستشرف لأمّته موضعا في دائرة الفعل، بامتلاك وسائله وأدواته، والانخراط في حركة نـهضويّة جديدة، منهجه في ذلك الاجتهاد الذي أراده الله تعالى أساسا للبنية العقليّة الإنسانيّة، وكان متفرّدا بتوفير

[1] -ع الكريم بكّار، تجديد الوعي،ص22

وسائل المعرفة للإنسان من جهة، ومن جهة أخرى إعلاء قدر الاجتهاد بجعل الأجر ملازما للمجتهد في حالة الخطأ والصّواب، ليكون بذلك قد أسّس لبنية دائمة الانفتاح، مستمرّة العطاء ضمانا للحركة التّوليديّة التي تحفظ العقل من الجمود والتقليد، الذي يؤدّي به إلى التأسّن والتحلّل الذاتي وما يتبعه من نتائج وآثار تعيها الأمّة الإسلاميّة وتعيشها إلى إشعار جديد.